بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم صيغ الديمقراطية في العراق القديم

أ.د. عامر سليمان(*)

شهدت مدن العراق الجنوبية نشوء أولى أنظمة الحكم وتطورها وذلك منذ عصور مبكرة جداً ربما سبقت العصور التاريخية التي تبدأ في العراق قبل غيره من بلدان العالم(1)، وهذا ما تؤكده الآثار المادية المكتشفة وتعززه النصوص المسمارية وان كانت متأخرة نسبياً. وتشير الأدلة المتوفرة ان تلك الأنظمة اتسمت بنوع من الحكم سمي فيما بعد بالحكم الديمقراطي، أي ان السلطة النهائية في المدينة كانت بيد مجلس ضم جميع المواطنين الذكور الأحرار، إلا ان الباحثين الأوربيين وصفوا ذلك النظام بأنه كان ديمقراطيا بدائياً Primitivc Democracy موازنة مع ما عرف من أنظمة في بلاد اليونان بعد اكثر من آلفي سنة(2). وواضح ان في هذا الوصف مجانبة لما لدينا من معلومات عن اقدم المدن العراقية وعن أنظمة الحكم فيها، تلك المدن التي نشأت فيها حقاً إحدى اعرق الحضارات الأصيلة

(*) عضو المجمع العلمي وأستاذ اللغة الاكدية - قسم الآثار - كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) تعد الكتابة الحد الفاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية، وكانت الكتابة المسمارية التي ابتكرها العراقيون القدماء اقدم نظام كتابي معروف في العالم حتى الآن وقد تحقق ذلك في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد في حين ابتكرت الكتابة في البلدان الأخرى أو اقتبست، بعد قرون عدّة.

(2) ينظر:

Jocobsen, Th., Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, Journal of Near Eastern Studies vol. II 13, 1943, p. 159.

المعروفة وعاشت فيها مجتمعات كانت قد ابتعدت تماماً عن الحياة القبلية وما فيها من نظم بدائية، فكان لها تقاليدها ونظمها وربما قوانينها المدونة التي نظمت الحياة فيها وضبطت تصرفات الأفراد بعضهم تجاه بعضهم الآخر وتجاه السلطة الحاكمة.

ان معلوماتنا عن أنظمة الحكم الأولى في مدن العراق القديمة وأشكالها مستمدة من مصدرين رئيسين هما الآثار المادية التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية والنصوص المسمارية ذات العلاقة.

فأما الآثار المادية، فإنها تشير إلى تطور كبير في مختلف جوانب الحياة، خلافاً لما نجده في قرى شمالي العراق الزراعية من المدة الزمنية ذاتها، وتؤكد ان الانتقال إلى الحياة المدنية قد تحقق في مدن جنوبي العراق في الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد في حين لم يتحقق ذلك الانتقال في شمالي العراق إلا في مدّة متأخرة نسبياً، ربما بعد ألفي سنة من ذلك، على الرغم من ان أولى محاولات الإنسان لإنتاج القوت عن طريق الزراعة والتدجين كانت في شمالي العراق كما كانت أولى القرى الزراعية المعروفة حتى الآن والتي ترقى بتاريخها إلى الألف السابع قبل الميلاد[3]. ويمكن تفسير ذلك بحقيقة ان البيئة الطبيعية في جنوبي العراق كانت اكثر قسوة مما كانت عليه في شمالي البلاد وبالتالي فقد كان على الإنسان في جنوبي العراق ان يدخل صراعاً عنيفاً ومريراً مع الطبيعة ان هو أراد ان يعيش في كنفها ويسخرها لخدمته. فكان عليه ان يشق الترع والجداول لسقي الأراضي الزراعية الخصبة نظراً لشحة الأمطار وكان عليه ان يقيم السدود والحواجز لدرء أخطار الفيضانات المدمرة التي كانت تهدد وجوده كما كان عليه

(3) الدباغ، تقي، من القرية إلى المدينة، في (المدينة والحياة المدنية، بغداد، 1988، ج 1، ص 38 وما بعدها.

ان يبتكر الوسائل المساعدة للسيطرة على الطبيعة وتيسير الحياة في طلبها وكان تحقيق كل ذلك بحاجة إلى تكاتف الجهود وتعاونها والى التجمع في مراكز رئيسة كانت نواة المدن الكبيرة التالية، فظهرت الحاجة، كما يبدو إلى من يوجّه العمل وينظمه ويعمل على حماية الجماعات وممتلكاتهم، فكان ان ظهرت أولى الإدارات المركزية التي تمثل أولى أنظمة الحكم المعروفة(4).

ومع كثرة الآثار المادية المكتشفة في مدن جنوبي العراق وتنوعها إلا أنها تبقى آثار صماء لا تحكي لنا إلا ماله علاقة بالحياة المادية فيها، أما الحياة الفكرية والأنظمة السياسية والاجتماعية فلا يمكن معرفتها من خلال تلك الآثار إلا بقدر محدود جداً. لقد تم فعلاً الكشف عن بقايا أبنية عامة كانت أماكن عبادة ومقرات حكام ومسؤولين عن إدارة المدينة، إلا ان ذلك لا يعطي فكرة عن أسلوب إدارة المدينة وصلاحيات حكامها. كما تمكن المنقبون من تتبع مشاريع الري والكشف عن بقايا بيوت السكن ومشاغل العمل وما فيها من آلات وأدوات وأسلحة وأواني فخارية وحلي ذهبية وأختام أسطوانية ومنبسطة وغيرها كثير وكلها ينم عن تقدم في الحياة وتطور في وسائل العيش وأساليبه كما يقدم لنا صورة واضحة عما ساد من طرز معمارية وفنية وزخارف وما عرف من حرف يدوية وما استخدم من آلات وأدوات وأسلحة(5). ومع ذلك، تبقى معلوماتنا عن الحياة السياسية وشكل أنظمة الحكم وعن الحياة الاجتماعية محدودة، إلا انه يمكن الاستنتاج ان التقدم في وسائل العيش وهذا الكم الكبير من الابتكارات التي حققها العراقيون القدماء في عصورهم المبكرة لتيسير الحياة لا يمكن ان ينمو ويزدهر إلا في ظل أنظمة حكم

(4) سليمان، عامر، العراق في التاريخ القديم، موصل، 1993، ج 2، ص 18.

(5) الدباغ، تقي، الثورة الزراعية والقرى الأولى في حضارة العراق، بغداد، 1985، ج 1، ص 138 ـ 141.

متطورة تسيطر على المدينة وتوجه العمل فيها وتعمل على حمايتها وتنظم حياة سكانها وتوفر لهم سبل العيش وان تلك الأنظمة لا يمكن ان تكون بدائية، كما يحلو لبعض الباحثين وصفها، بل لا بد وان كانت على درجة من التطور والتعقيد.

وتبقى النصوص المسمارية مصدرنا الأساس للتعرف على شكل أولى أنظمة الحكم التي نشأت في مدن جنوبي العراق على الرغم من أنها دونت في وقت متأخر نسبياً إذ ان غالبية النصوص ذات العلاقة دون في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد إلا أنها تعكس ما كان سائداً في المدن في عصورها القديمة التي امتدت أحيانا إلى العصور التي سبقت ابتكار الكتابة في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد. لقد ضمت هذه النصوص قصصاً وأساطير دينية مختلفة وكتابات تاريخية تعكس تصورات العراقيين القدماء من سومريين وغيرهم عن تاريخهم القديم وعن أول حكامهم وملوكهم(6). وكلما تقدمنا بالزمن كلما زادت معلوماتنا عن أولئك الحكام والملوك وعن شكل النظام السياسي الذي اعتمدوه بازدياد عدد النصوص المسمارية وتنوع مضامينها وتطرق بعضها إلى جوانب مهمة من حياة الملوك والحكام وأسلوب حكمهم وطريقة تعيين ولي العهد أو تتويج الملك أو تنصيب الملك البديل وكذلك كيفية اتخاذ القرارات المهمة وغير ذلك من جوانب النظام الملكي الوراثي الذي ساد ممالك العراق القديمة خلال معظم الآلاف الثلاثة من السنين التي

(6) انظر حول الملوك الأوائل، نص جداول الملوك السومريين

acobsen, Th., The Sumerian King Lis, Chicago, 1959

وحول ترجمة هذه الجداول ينظر: باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارة القديمة، ج 1، ط 3، بغداد، 1977، ص 290 - 297

سبقت الميلاد. وتؤكد هذه النصوص إلى ان الملك جمع بيده جميع السلطات التشريعية والتنفيذية، فكان من مسئوليته إصدار القوانين والتعليمات ونشر العدالة وتطبيق القوانين كما كان القائد الأعلى للقوات المسلحة والمسؤول عن إدارة المملكة إلى جانب مسؤولياته الدينية باعتباره ممثل الآلهة على الأرض ونائبها فيها والمسؤول الأول عن خدمتها وبناء أو تجديد معابدها. ومع وجود عدد من الممالك الصغيرة المستقلة في آن واحد، ولا سيما في عصر فجر السلالات (حدود 3000 – 2400 ق.م) والقسم الأول من العصر البابلي القديم (حدود 2000 – 1800 ق.م)، إلا ان الاتجاه العام كان نحو توحيد تلك الممالك في مملكة مركزية واحدة تسيطر على المنطقة بكاملها وتكون السلطة النهائية فيها بيد الملك، إلا ان الصورة لم تكن كذلك في العصور المبكرة التي سبقت نشوء وتبلور النظام الملكي الذي نعرف عنه الشيء الكثير في العصور التالية، بل يبدو ان النظام الذي ساد في العصر الشبيه بالكتابي (حدود 3500 – 2900 ق.م) وربما قبل ذلك، كان نظاماً يقوم على أسس ما عرف بالديمقراطية إذ كانت السلطة في المدينة بيد مجلس عام ضم جميع الأحرار من الذكور انبثق عنه مجلس للمسنّين منهم كما يصور لنا ذلك عدد من النصوص المسمارية ولا سيما القصص والأساطير الدينية[7].

فمن النصوص المهمة التي تلقي الضوء على شكل نظام الحكم في العصور المبكرة نص يتحدث عن الملك جلجامش[8] ملك الوركاء وعلاقته بالملك

(7) انظر: Jacobsen, Th., Primitive Democracy, op. cit., p. 167 .

(8) وهو خامس ملوك سلالة الوركاء الأولى بحسب جداول الملوك السومريين التي تصفه بأنه كان كاهن كلاّب، أحد قسمي مدينة الوركاء، وهو نفسه بطل الملحمة المشهورة باسمه. وقد ذكرت بعض النصوص ←

اَجا[9]، ملك كيش إذ يشير هذا النص إلى ان سلطة الملك الحاكم لم تكن آنذاك مطلقة في القضايا ذات الأهمية، كإعلان الحرب، بل كانت مقيدة بموافقة مجلس المسنيين والمجلس العام الذي ضم الشباب من القادرين على حمل السلاح. لقد أحسَّ اَجا حاكم كيش في نفسه القوة فبعث برسله إلى اوروك وحاكمها جلجامش يطلب منه الاعتراف بسيادته إلا ان جلجامش لم يكن يمتلك الصلاحية على القبول أو الرفض طالما كان الأمر يتعلق بمستقبل المدينة كلها، لذا تقدم أولا إلى مجلس المسنين في اوروك وعرض عليهم الأمر الخطير وطلب إليهم تأييده في عدم الاستسلام.

[d.]GIŠ.BIL-ga-meš igi ab.ba uru.na.ka [KA] ba.an.gar…….

" تكلم جلجامش أمام مسني مدينته …. "

ويبدو انّه حثّهم على رفض طلب حاكم كيش وبين استعداده دخول الحرب ضده ان هو أصر على ذلك وانتهى بالقول.

[é.gal] kiši [ki]šè gú nam.ba.an.gá.gá.an.dé.en [giš]tukul ga.àm.ma.síg.en.dè.en.

"دعنا لا ننحني لقصر كيش، دعنا نضربه بالسلاح!"

← المسمارية المتأخرة انه الّه نفسه، وقد نسبت له أعمال عمرانية كثيرة. وقد ذكرت جداول الملوك انه حكم 126 عاماً (ينظر باقر، طه، المصدر السابق. ص 293 و 309).

(9) وهو آخر حكام سلالة كيش الأولى، حكم حسبما ورد في جداول الملوك السومريين 625 سنة، وهي مبالغة واضحة اتسمت بها سني حكم الملوك الأوائل كما تصورها كتبة الجداول. وكانت كيش أول مدينة نزلت فيها الملوكية من السماء من بعد حادثة الطوفان الشهيرة وحكم فيها 23 ملكاً أسماء نصفهم في الأقل حملت صياغة لغة عاربة (Kramer S.N., The Sumerians, Chicago, 1963, p. 328)

وناقش المسنون الأمر في مجلسهم ولا نعرف كيف اتخذوا قرارهم وهل انهم اجمعوا، كما يبدو، على القرار أم كان منهم من خالف الرأي، إذ يذكر النص:

بعد ان اجتمع المجلس، أجاب مسني مدينته جلجامش بخصوص الأمر." وقالوا في نهاية الأمر بعد ان أعادوا كلمات جلجامش:

"دعنا نخضع لقصر كيش، دعنا لا نضربه بالسلاح"، وحزن لذلك جلجامش ولم يأخذ بما قاله المسنون الذين اثروا الاستسلام، كما تملي عليهم طبيعتهم الهادئة وسنهم.

" لم يأخذ جلجامش، الذي أنجز الأعمال البطولية لانانـّا، بكلام مسني مدينته" والتفت هذه المرة إلى مجلس الرجال وعرض عليهم الأمر. جمع مجلس الرجال أو الشباب القادرون على حمل السلاح وعرض الأمر عليهم بالأسلوب نفسه الذي عرضه على مجلس المسنيين. وبعد ان استمع مجلس الرجال لأقوال جلجامش، أيدوا جلجامش في رأيه وشجعّوه وحثـّوه على خوض الحرب قائلين:

"انت أنت الواقف

عسى ان لا تنحني لقصر كيش

دعنا نضربه بالسلاح"[10]

(10) يعد نص (جلجامش و اَجا) من النصوص السومرية المهمة جداً إذ انه يلقي الضوء على أسلوب إدارة المدن السومرية في اقدم عصورها التاريخية. دون النص في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد إلا انه يتحدث عن أحداث وقعت في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد (ينظر ترجمة القصيدة كاملة في

Kramer, S.N in Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, New Jersey, 1969, pp. 44 – 47.

فسرَّ جلجامش لهذا التأييد وفرح قلبه وبادر بالاستعداد للحرب وتجنيد الجند وإعداد السلاح ولسنا هنا في مجال تفاصيل ما حدث بعد ذلك.

يستنتج مما ورد في هذا النص ان سلطة الحاكم (بالسومرية اين en) كانت مقيدة في القضايا المهمة، كإعلان الحرب أو قبول الاستسلام، بموافقة مجلس المسنين أولا ومن ثم مجلس الرجال القادرين على حمل السلاح، وهو أمر طبيعي طالما كان الحاكم (اين en) ومن ثم الملك (لوجال lugal) قد انتخب أصلا من بين أعضاء المجلس العام ومنح الصلاحيات اللازمة لإدارة شؤون المدينة الدينية والدنيوية إلا القضايا الهامة التي يتوقف عليها مصير المدينة إذ كان عليه ان يرجع إلى من انتخبه ومنحه الصلاحية المقيدة. وفي حالة الطوارئ، أي في حالة إعلان الحرب مثلاً، كان المجلس ينتخب أحد أعضائه، سواء أكان الحاكم (اين en) أو غيره ليواجه الخطر الذي يهدد المدينة ويمنحه جميع الصلاحيات ولكن لوقت الطوارئ فقط إذ كان يفترض ان تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل إعلان الحرب. ولقب الشخص المنتخب لهذه المهمة بالرجل العظيم (لوجال lugal) الذي ترجم إلى اللغة الاكدية شَرّ šarru ، أي (الملك) ويفترض انه كان رجلاً قوياً بدنياً ومن أسرة نبيلة تمتلك أراضي واسعة يعمل فيها عدد كبير من الخدم والاتباع ليكونوا اتباعاً له وحرساً خاصاً يسهرون على حراسته وحمايته.

ان تطور الأحداث في مدن جنوب العراق في عصر فجر السلالات وتكرر الغزو الذي تعرضت له تلك المدن ولا سيما من بلاد عيلام والمنطقة الجبلية إلى الشرق من بلاد سومر واكد، واشتداد المنافسة بين المدن السومرية المختلفة للسيطرة على اكبر مساحة ممكنة من الأرض وتوحيد المدن في مملكة مركزية واحدة فضلاً عن رغبة الحكام الذين اصبحوا ملوكاً البقاء في الحكم والتمتع

بالصلاحيات الواسعة والحرص على توسيع النفوذ كل ذلك برّر للملوك البقاء في الحكم حتى بعد زوال حالة الطوارئ التي انتخبوا أصلا لمواجهتها[11]. ولكي يكون حكمهم شرعياً ومقبولاً لدى عامة الناس ادّعوا بأنهم جاءوا إلى الحكم تنفيذاً لرغبة الآلهة التي انتخبتهم لتمثيلها على الأرض ورعاية شؤون معابدها وأملاكها وإدارة شؤون المدينة ومن فيها. ولم يكتفو بهذا القدر من السلطة بل ان بعضهم ادعى، كما فعل عدد من ملوك أكد وأور، الألوهية وكتبت أسماؤهم مسبوقة بالعلامة الدالة التي تشير إلى أسماء الآلهة المقدّسة أو من كان من مستواها وكان من نتائج ذلك ان تقلصت مهام مجالس المدن ولم تعد تنظر إلا في القضايا التي يحيلها إليها الملك أو من يخوّله أو القضايا القانونية التي يتعلق بالخصومات التي تنشب بين الأفراد أو الجماعات.

ان هذه الصورة التي رسمت عن أولى أنظمة الحكم التي اتصفت بالديمقراطية تؤكدها القصص والأساطير الدينية كما تؤكدها بقايا تلك الأنظمة المتمثلة بمجالس المدن في العصور البابلية والآشورية وبتقييد صلاحيات الملك برغبة الآلهة وموافقتها على الإجراءات المهمة التي يتخذها الملك.

فمع ان القصص والأساطير الدينية هي خاصة بالآلهة وليس البشر إلا أنها تعكس ما كان سائداً عند البشر من نظم وتقاليد. فالمعروف ان من أهم سمات المعتقدات الدينية لدى العراقيين القدماء هي صفة التشبيه Anthropomorphism ، أي تشبيه الآلهة بالبشر ومحاكاتها لهم في مختلف جوانب الحياة العامة والخاصة فكانت الآلهة في ظنهم تأكل وتشرب وتحب وتكره وتتزوج وتنجب كما كانت تعقد

(11) حول أسباب اختفاء النظام الديمقراطي وظهور النظام الملكي الوراثي المطلق الصلاحية ينظر:
Evans, G., Ancient MesoPotamian Assemblies, pp.2 – 3 .

المجالس لمناقشة القضايا المهمة الخاصة بمواجهة أزمة عامة أو معاقبة مسيء من بين الآلهة وانتخاب أحد الآلهة للقيام بمهمة معينة وعدّه بطل الآلهة ومنحه جميع الصلاحيات والإمكانات التي تمكنه من مواجهة المشكلة التي انتخب أصلا من اجلها. وهكذا صوّر الكهنة مجتمع الآلهة في الأساطير الدينية وكأنه مجتمع للبشر وان النظام الذي سار عليه الآلهة إنما يعكس النظام الذي كان سائداً عند البشر ليس وقت تدوين تلك القصص والأساطير ولكن في العصور الذهبية السابقة، كما تصور العراقيون القدماء ذلك. لقد مثلت الأساطير مجلس الآلهة بأنه كان ينعقد كلما دعت الحاجة إلى ذلك وكان يرأس المجلس0 الإله اَنو، اله السماء وأبو الآلهة جميعاً ويقف إلى جانبه الإله انليل، وكان رئيس المجلس يوجّه أعضاء المجلس ويطرح عليهم ما يجب مناقشته من أمور، وربما القرار الواجب اتخاذه، وكان هناك مجموعة صغيرة من الآلهة مسئولة عن صياغة القرار الذي يتخذه المجلس وإعلانه سميت بمجموعة مشرّعي القانون. وكان رأي عدد من الآلهة، وهم الآلهة الرئيسة، وزن كبير وكان عددهم خمسون إلها[12] وربما كان هؤلاء يمثلون مجلس المسنين من رؤساء الأسر عند البشر والذين كانوا يؤلفون مجلساً مستقلاً عرف بمسني المدينة، أما بقية الآلهة، وعددهم كثير، فكانوا يمثلون ما عرف لدى البشر (بمجلس الرجال) أو (الشباب)[13] القادرين على حمل السلاح. وربما كان على جميع أعضاء المجلسين أداء اليمين مسبقاً بالالتزام بما سيتخذه المجلس من قرارات.

(12) See Jacobsen Primitive Democracy, op. cit., p. 168.

(13) كان (مجلس الرجال) يتألف من عدد كبير ممّا يسمى بالسومرية guruš وتدل الكلمة في النصوص السومرية القديمة الفرد من مجموعة عمال أو التنظيمات العسكرية في دولة المدينة، لذا فان المقصود هنا من (مجلس الرجال)، الأفراد القادرين على حمل السلاح (انظر: المصدر السابق، ص 166 ملاحظة 44).

أنهـا حقـاً صـورة مثاليـة لأقـدم أنظمـة الحكـم التـي شـهدتها مـدن جنـوبي العراق والتي شارك فيها جميع سكان المدينـة كبـاراً وشباباً وربمـا سـاهمت النسـاء فـي مجلـس الشـباب، إلا أنهـا لـم تسـتمر طـويلاً إذ غلبهـا النظـام الملكـي ذو الصـلاحيات المطلقـة المتمركـزة بأيـدي الملـك ومـن حولـه. مـع ذلـك ظلـت تـأثيرات النظـام الـذي سمي بالـديمقراطي واضـحة فـي مشـاركة مجـالس المـدن فـي حـق الخصـومات وفـي تقييـد واشـور إذ وصـلت إلـى آسـيا الصـغرى فـي إقلـيم كبدوكيا حيث قامت مراكز تجاريـة آشورية فـي مطلـع الألـف الثـاني قبـل الميلاد كـان يشـرف علـى كـل مركـز منهـا (كـازم karum) مجلـس مـن التجـار العـاملين فـي المركـز[14] ولـيس مـن غيـر المحتمـل ان انتقلـت تلـك الممارسـات غربـاً حتـى وصـلت بـلاد اليونـان التـي ظهـرت فيهـا، كمـا كـان يظـن خطـأ، أولـى الأنظمـة الديمقراطيـة، أي بعـد ممارسـتها فـي مـدن العـراق بـأكثر مـن ألفي سنة.

(14) ينظر البحث القيم الذي قدمه G. Evans عن مجالس المدن في المراكز التجارية الآشورية في آسيا الصغرى ومقارنتها مع مجالس المدن في بلاد بابل واشور المشار إليه آنفا.

Abstract

The most Ancient Democratic system in Iraq

Prof. Amer Sulaiman(*)

It is a well known fact that the ancient cities of southern Iraq have developed an advanced systems in most aspects of life, social, economic, religious and probably politic aspects, since pre-historic periods. It is very likely that among those systems was what has been later called democratic system of rule. Cuneiform texts from the secend mellenium B. C. refers to such a system which modern scholars have wrongly called ‘ primitive Democracy’.

This paper aims to prove the existence of such system of rule since the very early historic periods and it was not a ‘ primitive’ but a very well advanced and gives the relevant cuneiform texts that prove what has been suggested.

(*) College of Arts / University of Mosul.